جهود أبي الوليد الباجي ت 477 هـ في الجدل العقدي من خلال جوابه على رسالة راهب فرنسا إلى أمير سرقسطة، دراسة في المنهج وطرق الاستدلال

الدكتور عمار الدفعة
الدكتوراه في الشريعة، جامعة القرويين
أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي
المغرب

مقدمة

الحمد لله رب العالمين حمدا كثيرا طيبا مباركا، حمدا به يجلو عن القلب العمى، والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد، إمام المتقين وخاتم الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه والتابعين.

وبعد: فهذا بحث حول جواب أبي الوليد الباجي المتوفى سنة 477 هـ بألميرية، على رسالة راهب فرنسا إلى أمير سرقسطة يدعوه فيها إلى الارتداد عن دين الاسلام، والدخول في دين النصارى، باعتباره الدين الصحيح والأجدر بالاعتناق حسب زعمه.

وقد قسمته إلى ثلاثة مباحث وهي:

المبحث الأول: ذكرت فيه دعاوى راهب فرنسا وشبهه التي بنى عليها تلك الدعاوى.

المبحث الثاني: وخصصته لرد الباجي على تلك الدعاوى.

المبحث الثالث: وبينت فيه منهج الباجي في الرد على راهب فرنسا.

ويهدف هذا البحث إلى إبراز جهود علماء الغرب الإسلامي ودورهم في علم الجدل العقدي تقعيدا وتفريعا، وبيان مناهجهم في الرد على المخالفين من مختلف الملل والنحل، وذلك من خلال **دراسة منهج أبي الوليد الباجي في الرد على رسالة راهب فرنسا**، وما تضمن ذلك الرد من مناهج وقواعد لما يسمى بعلم الجدل العقدي أو الديني.

المبحث الأول: دعاوى راهب فرنسا، والشبه التي بنى عليها تلك الدعاوى.

المطلب الأول: دعاوى راهب فرنسا.

إن الناظر في رسالة راهب فرنسا التي وجهها إلى أمير سرقسطة، وكلف الباجي بالرد عليها، يلاحظ أنها عبارة عن كلام انشائي خال من الأدلة والبراهين النقلية والعقلية، بل هي في الحقيقة دعاوى ادعاها راهب فرنسا قصد من خلالها استمالة أمير سرقسطة للدخول في دين النصارى، والخروج من دين الاسلام.

وهذه الدعاوى تتلخص في المسائل التالية:

* الايمان بألوهية المسيح عليه السلام.

* الاعتقاد بأن المسيح هو منقد البشرية.

* ادعاء أن ديانة النصارى أجل من يدركها فهم انسان.

* انكار نبوة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، وادعاء أنها من تلبيس إبليس اللعين.

* دعوة أمير سرقسطة إلى الارتداد عن دين الاسلام.

المطلب الثاني: شبه راهب فرنسا.

بعد أن ذكرت في المطلب الأول دعاوى راهب فرنسا على وجه الاجمال، سأذكر في هذا المطلب تلك الدعاوى بالتفصيل، مع بيان الشبه التي بنيت عليها تلك الدعاوى وذلك وفق ما يلي:

الفرع الأول: الايمان بألوهية المسيح عليه السلام.

ادعى راهب فرنسا في رسالته أن الايمان بألوهية عيسى عليه السلام، وأنه المعطي والمانع والنافع، من ضروريات الاعتقاد الصحيح والدين القويم، حيث قال: "ويقررون عندك معرفة المسيح سيدنا الذي لا نرتجي النجاة إلا به. فهو الإله الذي اتخذ حجابا على صورتنا لينقذنا بدمه الطاهر من هلكة إبليس"[1].

فهذا ادعاء من راهب فرنسا لم يقدم عليه دليل نقلي أو عقلي، بل اكتفى بقوله:" ولقد كنا- أيها الملك الشريف- نورد كثيرا من هذا القول، لولا ما نتوقعه من تألمك بسماعه، وفي ذلك كله برهان الملة المسيحية وبيان جلالتها"[2].

فهل هذا دليل أو هراء أو شبهة؟، بل هذا الجهل بعينه.

الفرع الثاني: الاعتقاد بأن المسيح هو منقد البشرية.

ادعى راهب فرنسا أن المسيح عليه السلام، هو منقد البشرية من إبليس اللعين، وأنه عليه السلام فدى البشرية بدمه الطاهر، يقول الراهب في هذا الصدد:" فهو الإله الذي اتخذ حجابا على صورتنا لينقذنا بدمه الطاهر من هلكة إبليس"[3].

ولم يقدم على هذا الادعاء المخالف لصريح القرآن، أي دليل بل اكتفى بقوله السابق:" ولقد كنا- أيها الملك الشريف- نورد كثيرا من هذا القول، لولا ما نتوقعه من تألمك بسماعه، وفي ذلك كله برهان الملة المسيحية وبيان جلالتها"[4].

الفرع الثالث: ادعاء أن ديانة النصارى أجل من يدركها فهم انسان.

ادعى راهب فرنسا أن دين النصارى أكبر وأجل من أن يحاط به أو يدرك كنهه أحد من الخلق، حيث جاء في رسالته:" إن الاحاطة بكنهها- ديانة النصارى- مما يعجز دونه إدراك الانسان، وملك الله تعالى أجل وأعظم من أن يدركه فهم الانسان، أو يصل إليه بعلم الكلام ..."[5].

وقد اكتفى الراهب بتدليله على هذا الادعاء بقوله:" لأن من آيات الله القادر على كل شيء، أن يشرح صدور الآدميين، ويدخل روح العلم في قلوبهم، ليتمكن الايمان من نفوسهم... إلى أن قال وذلك أمر قد اهتدى إليه آباؤنا من قبل ابراهيم واسحاق ويعقوب، والانبياء أفصحوا به من بعدهم، وهو عهد الله مؤكد قبل الثوراة، أن يكون الالتحام المقدس، معلوما وليس هذا مما تختص به مصاحفنا فقط، بل هو منصوص عليه في مصاحف اليهود والمخالفين لنا ببيان واضح"[6].

لقد افترى راهب فرنسا على الأنبياء عليهم السلام، حيث نسب إليهم دعوى الحلول والاتحاد، بهتانا وزورا، والحق أن الأنبياء من آدم عليه السلام إلى محمد عليه الصلاة والسلام، دعوتهم واحدة وهي: توحيد الله وافراده بالعبودية، وتنزيهه عن الشريك وعن المثيل، وكل ما لا يليق بجلاله.

الفرع الرابع: انكار نبوة الرسول محمد عليه الصلاة والسلام، وادعاء أنها من تلبيس إبليس .

من الادعاءات المنكرة التي لاتقل خطورة عن الادعاءات السالفة والتي يكذبها النقل والعقل، ادعاء راهب فرنسا أن نبوة سيد الخلق وخاتم المرسلين محمد بن عبد الله، ما هي إلا نوع من تلبيس إبليس، وأن الرسالة ختمت بعيسى عليه السلام بعد أن اتحدت ذاته في الناسوت، وفدى بدمه الطاهر البشرية من شرور ومكر إبليس اللعين، قال الراهب في هذا الصدد:" فشبه على بني إسماعيل في أمر الرسول الذي اعترفوا له بالنبوة، فساق بذلك، أنفسا كثيرة إلى عذاب الجحيم"[7].

فهذا هو اعتقاد راهب فرنسا ومن تبعه في خاتم المرسلين وإمام المتقين، والعجب أنه كلما ادعى شيئا لم يقدر على التدليل عليه.

الفرع الخامس: دعوة أمير سرقسطة إلى الارتداد عن دين الاسلام.

هذه في الحقيقة دعوة وليس ادعاء، حيث أن الراهب من خلال ما ذكره في رسالته من دعاوى، قصد تحبيب أمير سرقسطة في دين النصارى، وذلك حتى يترك الامير الاسلام، ويدخل في دين النصارى، يقول راهب فرنسا في هذا الصدد:" ونحن نضرع إلى سيدنا يسوع المسيح أن يتولى رعايتك، ويتكفل سلامتك، ويهديك إلى دينه المقدس، ويسعدنا بالإيمان الصحيح آمين"[8].

فهذا هو الدين الصحيح عند الراهب، دين يتناقض مع أصوله، ودين يتهم الأنبياء بالشرك والالحاد، ودين يتهم خاتم الأنبياء عليه السلام بالتلبيس على الناس، ودين لم يستطيع راهب فرنسا أن يدلل على صحته ولو بنص صحيح أو برهان قاطع.

فيالها من جهالة ما بعدها جهالة، ويا لها من حماقة وضلالة ما بعدها حماقة وضلالة، أعاذنا الله من الشرك وأهله.

هذه بالجملة دعاوى الراهب وشبهه الخالية من أبسط الأدلة، فماذا عن رد الباجي عليها؟

المبحث الثاني: رد الباجي على دعاوى راهب فرنسا.

إن المتأمل في رد الباجي على رسالة راهب فرنسا، يجد أنه قصد بجوابه على رسالته، إسلام الراهب وأتباعه وذلك لما للراهب من مكانة وصدارة عند قومه، يقول أبو الوليد الباجي في هذا الصدد:" تصفحت أيها الراهب الكتاب الوارد من قبلك... فقبلنا مودتك لما بلغنا من مكانتك، عند أهل ملتك، واتصل بنا من جميل إرادتك.. إلى أن قال: وما تظهره من حرصك على الخير ورغبتك في الحق، مما قوى رجاءنا في قبولك له وأخذك له وإنابتك إليه"[9].

أما ردود الباجي على ادعاءات الراهب فقد جاءت كالتالي:

الفرع الأول: نفي ألوهية عيسى عليه السلام.

برهن الباجي على نفي ألوهية عيسى عليه السلام، بالنقل والعقل:

المحور الأول: النقل.

استدل الباجي على بشرية عيسى عليه السلام، وأنه ليس بإله، بمجموعة من الآيات القرآنية منها قوله تعالى: **[ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون]** سورة المؤمنون الآية 91.

المحور الثاني: العقل.

أكثر الباجي من الأدلة العقلية والأقيسة بمختلف أنواعها، التي توجب نفي الألوهية عن عيسى عليه السلام، وتؤكد على أنه بشر كسائر البشر ومن هذه الأقيسة ما يلي:

أ – أن الله تعالى خلق عيسى عليه السلام من غير أب كما خلق آدم عليه السلام من تراب، وقد حملت بعيسى عليه السلام أم، ولم تحمل بآدم امرأة ورجل، فإذا لم يكن آدم إلها وهو الأب الأول، بل هو مخلوق، فعيسى أولى أن لا يكون إلها وهو من ذرية آدم عليه السلام، إلى أن قال:" وإن هذا لواضح إلا لمن جهل معنى الحدوث ولم يميز الخالق من المخلوق"[10].

ب– أنه قد ظهر على أيدي سائر الرسل عليهم السلام من الآيات الواضحة والمعجزات الباهرة، مثل ما يظهر على يد عيسى عليه السلام وأكثر، فلو جاز أن يدعى لعيسى عليه السلام بشيء مما ظهر على يديه من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى، بأنه الله تعالى لجاز أن يدعى ذلك لإبراهيم عليه السلام، لما ظهر على يديه من سلامته من النار بعد أن قذف فيها، ولم ينج عيسى من عدد يسير من البشر راموا– بزعمكم– صلبه وقتله، ولجاز أن يدعى ذلك لموسى– عليه السلام– لما ظهر على يديه من قلب العصا حية، وفلق البحر، ولجاز أن يدعى لمحمد صلى الله عليه وسلم لما ظهر على يديه من انشقاق القمر ونبع الماء من أصابعه، وتسبيح الحصى في يده، وحنين الجذع إليه وغير ذلك من الآيات"[11].

ج– ثم استدل على نفي ألوهية عيسى عليه السلام بما يسمى في علم المناظرة بالنقض حيث قال:" إن من صفات الله أنه على كل شئ قدير، فأي قدرة لعيسى عليه السلام إذا كان بذل نفسه في نقض ما شرعه إبليس اللعين وغيره من خلقه"[12].

والغريب حسب رد الباجي أن عيسى عليه السلام:" لم يقدر على إصلاح ما أفسده – إبليس– ولا استرجاع ما أحدثه ولا تقويم ما عوجه، وإبليس اللعين لم يبلغ فيما ناله من ذلك، سفك دمه ولا تغيير حاله، ولا تجسد لغير جسده، ولا انتقل إلى غير ما كان عليه"[13].

هذا وقد وضع أبو الوليد راهب فرنسا في موضع لا يحسد عليه لما نقض قوله وسفه حججه ووصفه بقوله:" إن هذا مما كان يحجب ألا يجوز على أقل تلاميذك وأصغر أتباعك، ومما كان لا يجب على أضعف الناس علما وأقلهم فهما"[14].

الفرع الثاني: الرد على الاعتقاد بأن المسيح هو منقد البشرية وأنه صلب من أجلها.

استغرب أبو الوليد الباجي من ادعاء الراهب أن عيسى عليه السلام صلب فداء للبشرية، حيث قال مستدلا بالعقل على بطلان هذه الدعوى:" ومن أغرب ما تأتون به قولكم إنه فدى دمه في خلاص العباد، وكيف يكون للرب دم؟ والدم من الأجسام المحدثة المخلوقة؟، ولو حددتم الكلام لزعمتم أنه دم الناسوت دون اللهوت، وللزمكم أن تقولوا إن المصلوب هو الناسوت دون ابن الله تعالى، ولكنكم حققتم أن إلهكم صلب ومات وهذه صفة لا تصح إلا عن محدث مخلوق، لأن الحياة القديمة لا يصح عدمها، ولئن جاز هذا عليه، ليجوزن على أبيه- بزعمكم-، لأنه على صفة ابنه، بل هو [هو] عند جماعة منكم، فكيف يكون إلها قديما حيا، لم يزل، من يجوز عليه الموت وعدمت حياته؟ وكيف لم يذب عن نفسه الموت ولم يقدر على دفعه عنها...وإن من يعتقد مثل هذا الهراء:" إلا من سقطت مقالته، واستحكمت جهالته، وعميت بصيرته؟ فكيف يكون من هذه حاله يدعو إلى ما هو عليه ويندب إليه؟"[15].

والذي يظهر كما ذكر الباجي أن الذي حمل الراهب على اعتقاد المحال وتجويز قلب الحقائق، المعروفة بالبداهة وقليل النظر دون دقيقه، أمران هما:"

أحدهما: أن الراهب لم ير من الشرائع إلا ما نشأ عليه، فاعتقد أن الشرائع كلها، تجري هذا المجرى في الاستحالة والفساد، فقرر الاستمرار على ما وجد عليه سلفه، لأنه لم يظهر له سبيل أفضل من دين النصارى.

والثاني: أنه نال بهذا المحال والفساد، درجة كبيرة عند جهال أهل ملته، فكره أن ينحط عنها إذا انتقل إلى الدين الصحيح "[16].

الفرع الثالث: الرد على ادعاء أن ديانة النصارى أجل من يدركها فهم انسان.

أجاب الباجي على هذه الدعوى بقوله:" وعندنا من علم شريعتكم واختلاف أخباركم في ملتكم وما تورده كل طائفة من شبهكم في الأقانيم، والاتحاد ومعنى اللهوت والناسوت والجوهر وغير ذلك من تنميقات أناجيلكم ما لو أبدينا إليهما اليسر منه لحيرهما وبهرهما وعلما أن عندنا، من جملها وتفاصيلها، ما لم ينته إليه أحد من أهل ملتكم، ولا وصل إلى تفريعه وتتبع معانيه أولكم وآخركم، لكنا آثرنا الرفق بهما والاخفاء عليهما، والتأنيس لهما، وألنا لهما العقول، وأبدينا إليهما نبذة خفيفة من الأمر، مما لاتنفر منه نفوسنا، ولا تتوجع من سماعه خواطرهما، آخذين في ذلك بأدب الله تعالى في أمثالهما"[17].

إن ادعاء الراهب جهل المسلمين بديانة النصارى، ادعاء باطل، فلو لم يكن المسلمون يعلمون ديانتهم أصولا وفروعا لما أمكنهم الرد عليهم ومجادلتهم، والرد على شبههم.

الفرع الرابع: الرد على منكر نبوة الرسول محمد عليه الصلاة والسلام، وادعى أنها من تلبيس إبليس .

رد الباجي على دعوى الراهب أن نبوة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام من تلبيس إبليس، بأن الله تعالى بلطفه وحكمته وعطفه ونعمته: " بعث محمدا صلى الله عليه وسلم، فختم به الرسالة وأكمل به النبوة وجعله آخر المرسلين، وبعثه إلى جميع العالمين، ففضله بهذه الدرجات الرفيعة، وأبقى شريعته إلى يوم الدين، وأكرمه بهذه المنة العظيمة... كما أن بعثته عليه السلام جاءت بعد جهل الناس

بالشرائع وبعدهم عن معرفة الأديان والمذاهب ودخول التبديل والتغير عليهما بعد أن خالفت اليهود وسائر الملل عيسى ابن مريم عليه السلام، وردت ما جاء به"[18].

واستدل على ذلك بقوله:" فأتاهم بالمعجزات التي لا يصح فيها تمويه ولا تلبيس ولا تخييل ولا تحريف، من انشقاق القمر بحضرة جميع من آمن به وكفر، ممن غاب عنه وحضر، ونبع الماء من بين أصابعه في قدح صغير، حتى توضأ منه العدد الكثير، وتسبيح الحصى في يده وحنين الجذع إليه، وإطعام العدد الكثير من الطعام اليسير، وإبراء العيون بإمرار اليد عليها، وغير ذلك من المعجزات التي لو شئنا أن نتتبعها لعظم بذلك الكتاب وخرنا عما قصنا من الاختصار"[19].

الفرع الخامس: الرد على دعوة الراهب أمير سرقسطة إلى الارتداد عن دين الاسلام.

لقد رد أبو الوليد الباجي على دعوة الراهب لأمير سرقسطة ترك دين الاسلام والدخول في ملة النصرانية، بدعوة راهب فرنسا إلى الحوار البناء والحقيقي الذي ينبني على الحق وينتهي بقبوله، وهذا هو الحوار الذي أصل له القرآن الكريم بقوله تعالى: [**قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينك ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون]** سورة آل عمران الآية 64.

وقوله تعالى: [فقل تعالوا ندعو أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين] سورة آل عمران الآية 61.

ليختم جوابه بقوله:" والله نسأل أن يهديك ويهدي بك من قبلك فتفوز بأجورهم، وتكون سببا إلى استنقاذهم، فأنت فيما بلغنا مطاع فيهم"[20]. **[والسلام على من اتبع الهدى]** سورة طه الآية 46.

المبحث الثالث: منهج الباجي في مناظرة راهب فرنسا.

إن المطلع على رسالة راهب فرنسا وجواب الباجي عليها، يلاحظ أن أبا الوليد قد امتثل لقواعد وآداب المناظرة امتثالا يوحي بصدقه وإخلاصه، وغزارة علمه، وقوة الرد على الشبه بالحجة والبرهان النقلي والعقلي، وهذا الامتثال لقواعد المناظرة ومناهج الاستدلال يمكن تلخيصه في الآتي:

المطلب الأول: قواعد وآداب المناظرة.

لقد سلك الباجي في رده على راهب فرنسا، مسلك الترغيب والرفق بالمخاطب والمناظر، رغم أن أسلوب راهب فرنسا أسلوب مستقبح عقلا وشرعا، يقول الباجي في هذا الصدد:" فقصدنا الرفق والتأنيس لك، وكان ذلك أفضل ما روجع به من نرجى عودته وتنظر إنابته وفيئته... وكففنا عن معارضتك على ما استقبحناه من خطابك وسخطناه من كتابك من سب الرسل الكرام والأنبياء المعظمين عليهم السلام"[21].

وقد أكد أبو الوليد على تمسكه بهذا المنهج وجعله أساس الحوار والجدال مع أهل الكتاب، حيث ختم الرسالة بقوله تعالى: **[قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينك ألا نعبدوا إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون]** سورة آل عمران الآية 64.

ولعل المقصد الأساسي الذي قصده الباجي من هذا المسلك كما وضحه بنفسه، هو رجاء هداية راهب فرنسا ومن تحت إمرته بأن يدخل في دين الإسلام، يقول الباجي موضحا ذلك: "ونبالغ في الرفق بك والتبيين لك على منهج الخطب والرسائل لا على طريق البراهين والدلائل مساعدة لك على مذهبك في كتابك وموافقة لك في مقصدك، فعسى أن يكون أقرب لك إلى استمالك وأبلغ في معارضتك ومعالجتك"[22].

بل ومما يدل على القمة في التزام آداب المناظرة عند الباجي، دعوة الله أن يهدي راهب فرنسا إلى الحق، حيث قال:" والله نسأل أن يهديك ويهدي بك من قبلك فتفوز بأجورهم، وتكون سببا إلى استنقاذهم، فأنت فيما بلغنا مطاع فيهم"[23].

وهذا المسلك الذي اتبعه أبو الوليد في الرد على راهب فرنسا هو ما سماه عبد الملك الجويني، بالجدل الممدوح الذي به يحق المناظر الحق، ويكشف الباطل ويهدف إلى الرشد، مع من يرجى رجوعه على الباطل إلى الحق"24.

ويعتبر هذا النوع من الجدل عند عبد الملك الجويني من الجدل المباح، بل هو واجب من آكد الواجبات ودليله في ذلك النقل والعقل.

*** النقل.**

أ–الكتاب.

قوله تعالى: [**ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن**] سورة النحل جزء من الآية 125.

وقوله تعالى: [**قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين**] سورة النمل الآية 66.

ب–السنة.

قوله صلى الله عليه وسلم: [يحمل هذا العلم كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين][25].

ت–سير الأنبياء عليهم السلام والصحابة رضي الله عنهم.

أكد ا الجويني على جواز الجدل الممدوح بالإضافة إلى الكتاب والسنة، من خلال ما يستفاذ من سيرة الأنبياء عليهم السلام، وسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة، وسيرة علماء الصحابة رضي الله عنهم، ومن بعدهم من التابعين، حيث يرى أن هذا النوع من الجدل كان مسلكا وطريقا يقررون به قواعد الدين، ويدفعون به شبه المبطلين والمغردين، بل يرى أن الجدل عادة العقلاء في أديانهم ومعاملاتهم ومعاشراتهم "[26].

*** العقل.**

استدل الجويني على أهمية الجدل الممدوح وجوازه، وأنه مسلك قويم ومنهج سليم في تقرير الشريعة ودفع الشبه عنها من جهة العقل، بقوله: "ومما يدل على حسن الجدال، بل على وجوبه، من طريق المعنى: ما ثبت من وجوب معرفة الشريعة على الجملة فرضا على الكافة وتفاصيلها فرضا على الكفاية.

ولا سبيل إلى ذلك دون معرفة أصولها من أدلة العقول وأحكامها، فإذا رأى العالم مثله يزل ويخطئ في شيء من الأصول والفروع وجب عليه من حيث وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دعاؤه عن الباطل وطريقه إلى الحق، وطريق الرشد والصواب فيه، فإذا

لح في خطابه وقوى على المحق شبهته وجب على المصيب دفعه عن باطله والكشف له عن خطئه مما أمكنه من طريق البرهان وحسن الجدال، فحصل-إذ ذاك- بينهما المجادلة، من حيث لم يجدا بدا منه في تحقيق ما هو الحق، وتحقيق ما هو الشبهة والباطل.

وصار- إذ ذاك بهذا المعنى: الجدال، من آكد الواجبات، والنظر، من أولى المهمات، وذلك يعم أحكام التوحيد والشريعة "[27].

المطلب الثاني: طرق الاستدلال عند الباجي.

اعتمد الباجي في الرد على شبه راهب فرنسا، الدليل النقلي والعقلي، مقدما الدليل النقلي على العقلي، وسيتضح هذا من خلال الأمثلة التالية:

الفرع الأول: تقديم الدليل النقلي على العقلي.

استدل الباجي على بشرية عيسى عليه السلام، ونفي ألوهيته، بدليل نقلي وهو قوله تعالى: **[ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق]** سورة المؤمنون الآية 91.

ثم أردفه بأدلة عقلية تدخل تحت **مسمى قياس الأولى والشبه، وكذا دليل النقض.**

فما يتعلق بقياس الأولى، استدل على نفي ألوهية عيسى عليه السلام بنفيها عن آدم عليه السلام، بحيث ذكر أن إثبات الألوهية لآدم عليه السلام الذي لم تحمل به امرأة ولا رجل، أولى من أن تثبت لعيسى عليه السلام الذي حملت به امرأة، فحيث نفيت عن آدم فعيسى أولى بنفيها عنه.

وأما ما يتعلق بقياس المثل أو الشبه، فقد استعمله في نفي ألوهية عيسى عليه السلام كذلك، بحيث ذكر أن ادعاء النصارى لعيسى الألوهية بسبب ما ظهر عليه من المعجزات، ليس برهان صحيح، إذ ابراهيم وموسى ومحمد عليهم السلام ظهرت على أيديهم معجزات باهرة ولم يدع أحد لهم الألوهية، وحيث أن ذلك لم يجز في حقهم كذلك لا يجوز في حق عيسى عليه السلام.

وأما اعتماده على مسلك النقض فهو واضح في اعتماده عليه في نفي ألوهية عيسى عليه السلام، حين قال: "أن من صفات الله أنه على كل شئ قدير، فأي قدرة لعيسى عليه السلام إذا كان بذل نفسه في نقض ما شرعه إبليس اللعين وغيره من خلقه".

خاتمة

بعد دراستي لرسالة راهب فرنسا وجواب الباجي عليها، خلصت إلى ما يلي:

* امتثال الباجي لقواعد وآداب المناظرة امتثالا يوحي بصدقه وحسن نيته في المناظرة، كما يوحي بأنه عالم ومتمكن من أدوات الجدال والحوار مع المخالف.

* إن سلك الباجي في رده على راهب فرنسا، مسلك الترغيب واللين، يرجع لسببين وهما:

1 – امتثال الباجي للآيات القرآنية والأحاديث النبوية الداعية للحوار بالتي هي أحسن مع المخالف، والداعية كذلك لمقابلة الجهل بالعفو والصفح.

2– اعتماده على دليل المصلحة، إذ أن بعد المقصد لديه جعله يلين خطابه رجاء قبول راهب فرنسا الحق والدخول في الاسلام مع أتباعه.

* تنوع الدليل عند الباجي، بين دليل النقل والعقل والمقاصد الشرعية، يدل على غزارة علمه، وعلى إحاطته بدين النصارى أصولا وفروعا، وهو ما ينفي اعتقاد الراهب بأن المسلمين لا يعلمون شيئا عن دين النصارى، لأن دين النصارى في زعمهم أجل من أن يدركه فهم انسان.

توصيات

– ينبغي التمييز لمن يهتم بعلم مقارنة الأديان: بين حوار الحضارات والثقافات، وحوار الأديان، لأن كثيرا من الباحثين يقع لهم لبس وخلط بين حوار الحضارات وحوار الأديان، فلكل واحد منهما أهدافه ووسائله ومجاله سواء أعلن ذلك أو لم يعلن.

– كثرت المؤتمرات والندوات والمناظرات المهتمة بما يسمى بحوار الأديان، لكن أغلب التوصيات الصادرة عنها تكون في مجملها كلاما انشائيا فيه نوع من المجاملة، دون أن يبرز ما يجب فعله لتحقيق الهدف من إقامة مثل هذه المؤتمرات، لذلك من اللازم على الباحثين والمهتمين بهذا المجال أن يحددوا قضية من القضايا العقدية الخلافية بين المسلمين وأهل الكتاب مثلا، ويحتكم الجميع الى نصوص الوحي وقواعد المنطق والجدال دون مكابرة ولا مجاملة، حينها سيكون لهذه المؤتمرات نتائج ملموسة تحقق المقصد والغاية من إقامتها.

– تجمع المصادر التي ترجمت لأبي الوليد الباجي على أنه من أبز علماء الأندلس وحفاظها، بل أنه من أئمة المسلمين المعدودين، كما أن له تآليف كثيرة في مختلف المجالات منها كتاب السراج في علم الحجاج، لذلك يجب على من تصدر للمناظرة أو الجدل العقدي أن ينهل من علم هذا الرجل وآدابه وتجاربه فهو رائد مدرسة الغرب الإسلامي في مجال الجدل بأنواعه سواء الفقهي أو الأصولي أو العقدي.

الهوامش:

[1] – رسالة راهب فرنسا وجواب القاضي الباجي عليها ص 46.

[2] – نفس المرجع السابق ص 46.

[3] – نفس المرجع السابق ص 46.

[4] – نفس المرجع السابق ص 46.

[5] – رسالة راهب فرنسا وجواب القاضي الباجي عليها ص 47.

[6] – نفس المرجع ص 46.

[7] – رسالة راهب فرنسا وجواب القاضي الباجي عليها ص 49.

[8] – نفس المرجع السابق ص 49.

[9] – رسالة راهب فرنسا وجواب القاضي الباجي عليها ص 65. طبعة دار الصحوة للنشر والتوزيع بالقاهرة سنة 1406 هـ.

[10] – نفس المصدر السابق ونفس الطبعة ص 66.

[11] – رسالة راهب فرنسا وجواب القاضي الباجي عليها ص 60-61.

[12] – رسالة راهب فرنسا وجواب القاضي الباجي عليها ص 87. طبعة دار الصحوة للنشر والتوزيع بالقاهرة سنة 1406 هـ.

[13] – نفس المصدر السابق ونفس الطبعة ص 87.

[14] – نفس المصدر السابق ونفس الطبعة ص 88.

[15] – نفس المرجع السابق ص73.

[16] – نفس المرجع السابق ص 73.

[17] – نفس المرجع ص 65-66.

[18] – نفس المرجع السابق ص80

[19] – نفس المرجع السابق ص81

[20] – رسالة راهب فرنسا وجواب القاضي الباجي عليها ص 101. طبعة دار الصحوة للنشر والتوزيع بالقاهرة سنة 1406 هـ.

[21] – رسالة راهب فرنسا وجواب القاضي الباجي عليها 85.

[22] – رسالة راهب فرنسا وجواب القاضي الباجي عليها ص 65. طبعة دار الصحوة للنشر والتوزيع بالقاهرة سنة 1406 هـ.

[23] – رسالة راهب فرنسا وجواب القاضي الباجي عليها ص 89.

[24] – الكافية في الجدل ص23.

[25] – صحيح رواه البيهقي رقم الحديث 51.

[26] – الكافية في الجدل ص 23

[27] – الكافية في الجدل ص24.